ذم المرأة في الخطاب التفسيري مقاربة سياقية كيد النساء أنموذجاً أنم

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم اللغة العربية dr.yaqoob.yosif.alyassri@utq.edu.iq

الملخص:

عمد البحث إلى عرض أنموذج لخطاب تفسيري سلبي اتجاه المرأة، حينما وصفها هذا الخطاب بالمكر والخديعة متخذا من النص القرآني ذريعة لذلك في ضوء آليات لغوية دلالية وفي قبال ذلك قدم البحث مقاربات تبدد هذه النظرة السلبية اتجاه المرأة, ليتم بعد ذلك حصر توصيف النص القرآني للمرأة بالكيد ضمن السياق القصصي فحسب.

الكلمات المفتاحية: (دم المرأة، الخطاب التفسيري، كيد النساء).

The slander of women in the explanatory discourse, a contextual approach, as a model, as a model for women Dr. yaequb yusuf khalaf
Dhi Qar University / College of Education for Human Sciences / Department of Arabic Language

Abstract:

The research deliberately presented a model for a negative explanatory discourse towards women, when this discourse described them as cunning and deception, taking the Qur'anic text as a pretext for this in the light of semantic linguistic mechanisms. In the context of the story only

Keywords: (disparaging women, explanatory discourse, deceiving women).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد تعاطى الإسلام مع قضايا المرأة بنحو مغاير لما عليه حالها في المجتمعات والثقافات الاخرى, فشرع منظومة حقوقية تعيد لها كرامتها وإنسانيتها وحقوقها, وصاغ النص القرآني خطابا ينسجم مع منظومة الحقوق الاسلامية الجديدة, وكان يفترض بالخطاب التفسيري أن يساير الخطاب القرآني ويعمد على توظيف آلياته وأدواته ليعكس مقاصد الخطاب القرآني اتجاه المرأة ومكانتها, إلا إن المتابع للخطاب التفسيري, يلحظ أنه أفرز خطابا مغايرا لمقاصد الخطاب القرآني, وأقل ما يقال عنه أنه لم يكن خطابا حياديا اتجاه المرأة, فبقي هذا الخطاب يتعاطى مع المرأة بنظرة دونية, فالنساء – وفقا للخطاب التفسيري – هي مصدر للشر, وسجيتها الكيد والخديعة, والنساء ناقصات للخطاب التفسيري عكسها الخطاب العقول, ومكانتهن دون مكانة الرجل, وغيرها من الصور السلبية التي عكسها الخطاب التفسيري السلبي اتجاه المرأة بخصوص وصفهن بالكيد, واشتمل البحث على ثلاثة مطالب :

الطلب الاول: استعرض البحث نماذج تفسيرية عالج فيها المفسرون آية توصيف القرآن للنساء بالكيد الواردة ضمن السياق القصصي لسورة يوسف, فقادهم وعيهم بهذا الخطاب القرآني ليشملوا عموم النساء لا خصوص السياق الوارد فيه هذا التوصيف.

المطلب الثاني: قدم البحث المعطيات والأدلة التي تثبت أن المفسرين لم يقفوا عند توصيف الخطاب القرآني, بل انشغلوا بتقديم خطاب تفسيري سلبي اتجاه المرأة عموما.

المطلب الثالث: قدم البحث في هذا المطلب المقاربات اللغوية والدلالية والفكرية التي نراها كفيلة بتبديد الصورة السلبية التي قدمها الخطاب التفسيري اتجاه المرأة.

ومن الإنصاف أن نشير أن الخطاب التفسيري لم يكن سلبيا اتجاه المرأة على نحو العموم, بل إنه كثيرا ما يتصدى للدفاع عن المرأة وحقوقها ولاسيما ما نجده عند المفسرين المتأخرين, لكن النظرة السلبية للمرأة شكّلت ظاهرة بارزة في هذا الخطاب.

كيد النساء بين التوصيف القرآنى والغهم التفسيري

وصفت النساء في النص القرآني بأنهن أصحاب كيد في قوله تعالى ((إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)) (يوسف : ٢٨) وعلى الرغم من أن هذا الوصف لم يكن خطابا إلهيا للمرأة, إذ إن سياق هذا التوصيف جاء على لسان عزيز مصر حيث راودت امرأته النبي يوسف (عليه السلام) وفي سياق قصصى قرآني أرادت امرأة العزيز أن توهم زوجها بأن يوسف (عليه السلام) هو من أراد سوءا بها وبعد انكشاف افترائها على وفق ما جاء في السياق القصصى عندئذ حكى القرآن على لسانه هذا التوصيف, قال تعالى: ((فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُر قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)) (يوسف : ٢٨) ومع إن هذا التوصيف صدر من عزيز مصر, إلا إنه صار ذلك ذما للمرأة ولم يقتصر على ألسنة العامة, بل نجد ذلك تلميحا وتصريحا عند بعض المفسرين فعلى الرغم من تتبه المفسرين إلى إن الخطاب ليس خطابا إلهيا, وعلى الرغم من إن هذا الفعل صدر من امرأة واحدة, إلا إن بعضهم رأى في ذلك إقرارا من النص القرآني لهذا التوصيف, وإن الكيد بما يحمل من دلالة القبح والاضرار بالإنسان والخبث صار وصفا تكوينيا لازما في خلق المرأة, وسنورد هنا بعض النصوص التفسيرية التي تشير إما صراحة أو تلميحا أن الكيد بدلالته الذمية وصف ملازم للمرأة, فالألوسي مع وعيه التام أن التوصيف جاء في سياق تأريخي قصصى, لكنه أصر على أن الخطاب للنساء مطلقا قال: ((وأيا ما كان فالخطاب عام للنساء مطلقا وكونه لها ولجواريها كما قيل ليس بذلك وتعميم الخطاب للتنبيه على ان الكيد خلق لهن عظيم)) (

الالوسى: ١٥/٦,١٤١٥) ومضى الالوسي مفندا ومضعفا كل رأي مال إلى التخصيص (الالوسي: ١٥/٦,١٤١٥). وحين تتبعنا أقوال المفسرين تبين لنا أن الإطلاق في التوصيف هو الرأي الذي مالوا اليه, بل هو ما عليه قدماء المفسرين ومعاصريهم, فالطباطبائي – وهو من المعاصرين – يقول ((ونسبة الكيد الى جماعة النساء مع كونه من امرأته للدلالة على أنه إنما صدر منها بما أنه من النساء, وكيدهن معهود معروف, ولذا استعظمه)) (محمد حسين الطباطبائي ١٤١٧-١٩٩٧, ١١/

وقد يشكل علينا أحدهم ويقول إن التعميم والاطلاق الذي عناه المفسرون هو حكاية عزيز مصر, والمفسرون نقلوا هذا الاطلاق الذي ظهر من حكاية لسانه, وأنهم عللوا هذا التعميم ليس إلا, فليس مقصودهم أن الآية حكت اطلاقا إلهيا. الا أن هذا الإشكال غير سديد, اذ إننا نؤكد أن المفسرين أرادوا تثبيت الاطلاق على إنه توصيف الهي للمرأة, فهو وإن كان جرى على لسان عزيز مصر الا إن النص القرآني أقر ذلك التوصيف, ودليلنا على ذلك مجموعة معطيات لاحظناها في الخطاب التفسيري المتعلق بنسبة الكيد لهن, وهى:

المفسرين حين أرادوا تعليل نعت الكيد بالعظيم, علوه على إنه وصف ملازم للنساء على نحو الاطلاق, لا على إنه تعليل يفسر صدوره في سياقه التأريخي, قال القرطبي: ((وإنما قال عظيم لعظيم فتتتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن)) (أبو عبد الله محمد أحمد القرطبي, ١٩٦٤: ٩/١٧٥) وقال أبو حيان: ((ووصف كيد النساء بالعظيم وإن كان يوجد في الرجال, لأنهن ألطف كيدا بما جبلن عليه, وبما تفرغن واكتسب بعضهن من بعض وهن أنفذ حيلة)) (أبو حيان الأندلسي, ١٤٢٠ ٢٦٢/٦) وهذا ما يلحظ في أغلب نصوص المفسرين قدماء ومعاصرين (أبو القاسم محمد بن

عمرو الزمخشري, ١٤٠٧هـ: ٣٨٤/٥), فتعليل عظيم كيد المرأة في الخطاب التفسيري لم يكن ناظرا لحال لسان من قالها في السياق القصصي.

الثاني: عمد المفسرون إلى مقايسات سياقية قرآنية وعقلية تظهر وجه المقارنة بين كيد الشيطان, وكيد النساء, وتفوق كيدهن على كيده, اذ إن الخطاب التفسيري استحضر قوله تعالى: ((الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالنّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالنّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالنّذِينَ كَفْرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّه في اللّه المنسرون أن الكيد عند النساء أعظم من كيد الشيطان اذا ضمت إلى آية كيد النساء ((حصل فالشنقيطي,١٩٩٥: بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان)) (محمد الأمين الشنقيطي,١٩٩٥: ١٩٩٥)

الثالث: استند الخطاب التفسيري الى الموروث الروائي ليعزز به عظم كيد النساء مقارنة بكيد الشيطان, فالقرطبي يستند إلى حديث منسوب لابي هريرة عن النبي (ص) (إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان)) (أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي, ١٩٦٤) وتواردت الأخبار في الخطاب التفسيري دعما لهذه المفاضلة, وهذه الروايات تفيد أن الشيطان يستعين بالنساء لإغواء من صعب عليه إغواءه, منها أن البليس قال: ((النساء فخوخي ومصاندي فاذا اجتمعت علي لعنات الصالحين ذهبت اللي النساء فطابت نفسي بهن)) (الكاشف, ٢٠٠٩: ١٠٥٣) الرابع: عمد المفسرون إلى دفع اعتراض مفاده كيف يوصف كيد النساء بالعظمة, مع إن الانسان خلق ضعيفا, فتصدى الرازي – على سبيل المثال – للإجابة عن هذا الاعتراض, إذ ((إن خلقة الانسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوات بالنسبة إلى كيد البشر عظيم, ولا منافاة بين القولين)) (فخر

الدين الرازي, ١٢٩١هـ-٢٠٠٨م: ٢/٢٤) وبهذا يكون المفسرون قد مارسوا تقنية حجاجية أرادوا بها تعزيز قناعة المتلقى على أن كيد النساء يمثل توصيفا قرآنيا عاما تجاوز التوصيف التأريخي.

كل هذه المعطيات السابقة دلت مجموعة على قناعة المفسرين أن الكيد بصورته المستهجنة مثل وصفا لازما للنساء وليس خصوص النساء في السياق القصصي, وبهذا أصبح النص القرآني ((سوطا في يد الكثيرين لجلد ظهور النساء والتصريح بأنهن جميعهن مثلها, لايؤتمن على شيء, كما حملت النساء في كل زمان تبعات الخطيئة الأولى, حملت مسؤولية امرأة العزيز, فغدت كل امرأة لا شيطانا فحسب, بل هي أشد دهاء منه)) (راشد الغنوشي ٢٠٠٠م: ٤٤).

مقاربات سياقية في نقد الخطاب التفسيري

بعد أن قدمنا تصور الخطاب التفسيري بخصوص كيد النساء, إذ ألصق بهن صورة مستهجنة قبيحة وكأن الخديعة والمكر صارتا سجية ثابتة لازمة للنساء عموما, نحاول هنا أن نقدم مقاربات لغوية وسياقية نعتقد أنها تبدد الصورة النمطية السابقة, وتتزه النص القرآني عن كونه يتعامل بهذا الشكل السلبي اتجاه المرأة.

المقاربة الاولى

الكيد في المنظور اللغوي والقرآني ليس هو الخديعة والغش, كما هو عليه الفهم العرفي, بل هو التدبير بباطل أو حق, فابن فارس يرى أن الكيد ((أصل صحيح يدل على معالجة الشيء بشدة)) (احمد فارس بن زكريا,٥:٩٧٩ / ١٤٩) وقال الراغب ((الكيد ضرب من الاحتيال, وقد يكون مذموما وممدوحا, وإن كان في المذموم أكثر)) (الراغب الأصفهاني, ٥٠٤ اهـ ٢٨٠) فتخص الكيد بالدلالة على المعنى المستبطن

للذم غير صحيح, والاستعمال القرآني لمفردة (الكيد) يعزز هذا العموم, فالكيد جاء بدلالة على ما هو ممدوح حين جاء وصفا للفعل الالهي قال تعالى: ((وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)) (الأعراف: ١٨٣) وجاء الكيد وصفا لفعل النبي ابراهيم (ع): ((وَتَاللَّهِ لَأَكْدِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُولُوا مُدْبِرِينَ)) (الانبياء: ٥٧).

وجاء (الكيد) بما يحمل معنى الذم حين استعمل وصفا لفعل الكافرين قال تعالى : ((ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)) (الانفال : ١٨) ووصفا لفعل فرعون, قال تعالى : ((فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى)) (طه : ٢٠) ووصفا لفعل الشيطان, قال تعالى : ((الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاعُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)) (النساء : ٥) ووصفا لفعل الخائنين ((ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْعَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)) (يوسف : ٢٥)وجاء (رذَلِكَ لِيعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْعَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)) (يوسف : قالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُوْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ اللَّهُ يَا الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوِّ مُبِينًا)) (يوسف : ٥)

وبلمح الأصل اللغوي والاستعمال القرآني تترشح مقاربة مفادها أننا نحمل الكيد الذي وصف به النساء على إنه ضرب من التدبير لا الغش والاحتيال و ((كيد المرأة إنما هو كيد إنسان يتموضع إما للصلاح أو ينحرف لمقام الذم والحيلة, فان كان فعل زليخة وصف بالذم فإن تدبير بلقيس كام ممدوحا باسلامها لله وتجنبها لحرب خاسرة)) (فريدة زمرد).

إن هذه المقاربة لا يمكنها أن تبدد الصورة المستهجنة التي قدمها الخطاب التفسيري, اذ إن الكيد لما كان ضرب من التدبير يستعمل في الحق والباطل, والمرجع في تحديد

مجلة الدراسات المستدامة . . السنة الثالثة / المجلد الثالث / العدد الرابع/ منحق (١). لسنة ١٠١١ م -١٠٢١ هـ

ذلك هو السياق, والسياق هنا يفرض كيد النساء كان باطلا, فلا بد من البحث عن مقاربة أخرى.

المقاربة الثانية

إن منشأ تكون هذه الصورة السلبية إتجاه النساء في الخطاب التفسيري بخصوص الكيد ناجم عن النظرة التجزيئية للخطاب القرآني, وإهدار السياق التأريخي, فلا شك أن هذا التوصيف هو حكم بشري جاء على لسان رجل مأزوم ومتسق مع ظرفه النفسي فه ((العبارة وليدة شعور ذاتي كردة فعل يعبر بها عزيز مصر رأي رجل عن خيانة زوجته له وتبرر على وفق ذلك أن المقولة شكلت وأجريت كحكم قطعي من قبل العزيز للتخفيف عن حدة الالم والغيض الذي غزاه)) (أسماء المرابط, ٢٠١٠م: ٧٧) ومن الواضح أن الخطاب التفسيري انساق بوعي أو بغير وعي خلف ذكورية أصحابه وقبلياتهم المعرفية التي تستبطن الجانب السلبي اتجاه المرأة, فمضى هذا الخطاب بجرم كل النساء انسياقا خلف تجريم رجل واحد له ظروفه النفسية والتأريخية, ولعل الخطاب التفسيري أراد أن يقنع نفسه بصحة هذا التعميم حين يفرض أن سكوت النص القرآني وعدم تخطئته لهذا الحكم الشرعي هو بمثابة إقرار الهي لهذا الحكم .

وهذا برأينا غير صحيح, فلم يعهد عن النص القرآني أنه يرصد الحالات السلوكية والقولية الخاطئة في القصص القرآني ويصوبها بنحو تفصيلي, بل عادة القرآن أنه يوظف القصص لتمرير رسالة تربوية أو أخلاقية معينة, ويترك للقارئ دوره في تشخيص ما يصح وما لا يصح ولاسيما أن العقل الانساني والفطرة السليمة لهما القدرة على تشخيص الخاطئ من القول والعمل, فاذا ما قدرنا تدخل النص في كل جزيئات

القصص عندئذ سيفقد النص القصصي جمالياته وبالتالي يفقد قدرته على التأثير على المتلقى وشد انتباهه.

المقاربة الثالثة

لو فرضنا جدلا ان النص القرآني أقر ذلك التوصيف البشري, لكن التهويل والتضخيم بهذا الوصف (الكيد) للنساء بنحو ما وجدناه في الخطاب التفسيري, إذ عمد المفسرون - كما ذكرنا سابقا - إلى المقايسة قرآنيا بين كيد النساء, وكيد الشيطان, هذا التهويل لا نراه مبررا, فالكيد بصورته السلبية وصف به غير النساء, بل إن وصف النساء بالكيد جاء في مورد واحد في حين ورد المكر في الاستعمال القرآني منسوبا للرجال بنحو التوصيف الالهي قال تعالى : ((قَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)) (ابراهيم : ٢٤)فمن الواضح أن المكر وفقا لهذا النص القرآني يحمل من التعظيم والتهويل ما لا يحمله نص نسبة الكيد إلى النساء, لأن التوصيف لمكر الرجال جاء إلهيا, يعكس كيد النساء ذي التوصيف البشري, ومع ذلك لم نر الخطاب التفسيري هول وعظم لهذا المكر, ولم تنسج القصص والمرويات تجسيدا لمكر الرجال على منوال ما شاهدناه في توصيف كيد النساء.

فضلا عن ذلك, المقايسة التفسيرية بين كيد الشيطان وكيد النساء غير صحيحة, اذ إن كيد الشيطان, وصف بالضعيف, اذ لا يعني القول أن كيدهن أعظم من كيد الشيطان, ذلك إن وصف كيد الشيطان بالضعف كان في قبال قدرة الله تعالى, فكل قوة في الدنيا, وكل كيد بها هو ضعيف أمام قوة الله عز وجل, وسياق الآية يكشف هذه المقايسة, قال تعالى : ((الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاعُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَان إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَان كَانَ ضَعِيفاً)) (النساء : ٧٦) لذلك ((أكد

الجملة بمؤكدين (إن) و (كان) الزائدة الدالة على تقرر وصف الضعف لكيد الشيطان)) (محمد طاهر ابن عاشور, د. ت: ١٨٨/٤).

ولعل وصفه بالضعف جاء تسلية للمؤمنين وتقوية لعزيمتهم, وشحذ إرادتهم في صراعهم ضد الباطل والله العالم .

وعندئذ نعرف أن ضعف كيد الشيطان لا يعني أن كيد النساء أقوى منه وأعظم ف ((كيدهن المذموم ما هو الا جزء من كيد الشيطان)) (محمد رشيد رضا, ١٩٩٠: ٥/٢١٢)

المقاربة الرابعة

من المؤكد أن المفسرين على وعي تام أن وصف الكيد للنساء جاء في سياق قصصي تأريخي, لكننا نعتقد ان تعميمه جاء وفقا لقاعدة تفسيرية تقول ((ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)) (محمد فاكر المكيبديو ٢٠٠٧: ٣٨٤) ومفاد هذه القاعدة أن مجرد ورود الحكم في نص يعني أنه مطلق في الزمان بغض النظر عن المحيط الاجتماعي الذي استدعى وروده, والذي تم تفصيل النص على مقاييسه وحاجاته, وعندئذ يكون منطق الخطاب التفسيري أن الكيد وان كان منسوبا إلى نساء محددات ضمن سياق قصصي, الا إنه يلزم تعميمه لكل النساء بتفعيل قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والواقع إن هذه القاعدة قطعت الطريق مسبقا أمام أي نقاش حول التفاعل الطبيعي بين النص والاجتماع, وعندئذ نرى أن الخطاب التفسيري لم يقف على الطبيعة الحقيقية لعلاقة التداخل بين النص القرآني والواقع الاجتماعي المزامن له, بل كان يضمر نزوعا

للقطع بينهما لحساب القول بالأصل المفارق والمسبق للنص (عبد الجواد ياسين, ٧٥ : ٢٠٢١).

والذي يراه البحث أن هذه القاعدة تمثل أصلا صحيحا لتوجيه عدد كبير من دلالة النصوص القرآنية, لكن لا يمكن الاحتكام إليها بعدّها مطلقة في التعامل مع النص القرآني, اذ لابد من مراعاة ملابسات النص الاخرى للوقوف عند مراد صاحب النص, فقد لا يكون العموم مراده قطعا, لذا ((فان العبرة في دلالة النص أي نص, ليس بعموم اللفظ ولا بخصوص السبب, بل هي ضمن اعتبارات أخرى مركبة به مراد النص)) (عبد الجواد ياسين, ۲۰۲۱: ۷۰).

فمصادرة الواقع المزامن لظروف تشكّل النص وصدوره بحجة قاعدة العبرة بعموم اللفظ, يفضي إلى مصادرة مراد صاحب النص, وهذا ما نعتقده قد جرى عند تعميم الخطاب التفسيري لمطلق النساء في وصفهن بالكيد.

المقاربة الخامسة

يرى البحث أن الدلالة السلبية التي بناها الخطاب التفسيري لم تتتج على وفق منطلقات لغوية أو سياقية وإنما أنتجت بفعل قبليات اجتماعية كانت مهيمنة على المفسرين تستبطن دونية المرأة واحتقارها, فكانت للهيمنة الذكورية حضورها الواضح في الخطاب التفسيري والحيد به . بغير وعي أو بوعي . عن مقاصد الخطاب القرآني إذ يبدو ((أن استيعاب العلماء العرب للآيات القرآنية مبنيا على الثقافة المجتمعية, وتلك مؤسسة على قاعدة التمييز بين الجنسين على إنها تؤكد أحقية هيمنة الذكر على الأنثى مدوفي حقيقة الأمر إنهم يفسرون القرآن في ضوء التقاليد القبلية والعادات القديمة)) . . . وفي حقيقة الأمر إنهم يفسرون القرآن في ضوء التقاليد القبلية والعادات القديمة)) فرض الفاضلي, ٢٠١٨: ٥٠)، ومن هنا يتوجب على قارئ النص والباحث عن دلالته

أن يتجرد عن مسبقاته الثقافية كي يصل إلى فهم موضوعي يقترب من مقاصد صاحب النص .

وهناك مهيمن آخر كان له حضوره في تشكّل هذا الخطاب التفسيري, تمثل بسلطة الرواية والحديث, اذ رأينا كيف أن المفسرين استشهدوا بالمرويات التي تعزز فكرة الانتقاص من المرأة وذمها, فه ((للأثر والسلف من أفعال في توجيه خطابات المؤولين الناتجة عن تفاعل بين النص المؤول وآلاته المفسرة الواصفة)) (د. على الشبعان, ١٠١٠م: ٨٧) تأثير واضح في فرض قناعات على المفسر نفسه وعلى متلقى خطابه ف ((الأثر والسلف حاصلين مدركين, بل نعتبرهما قيمتين مقولتين يجردان ويحدسان, دورهما في كونهما سلطتين فاعليتين في الجمهور فعل الرمز في الذاكرة يعتقد فيه الناس تجریدا وتصورا دون تبصر أو إدراك له)) (د. علی الشبعان, ۲۰۱۰م: ۸۷) فالمرأة في عدد غير قليل في الموروث الروائي ذات صورة مستقبحة مذمومة, والمفسر كثيرا ما ينساق خلف هذا الموروث فتتشكل لديه صورة المرأة على غرار هذا الموروث وتتعكس قناعاته في خطابه التفسيري بعد أن يجهد نفسه في ايجاد توافق بين النص القرآني والموروث الروائي, ولا يأتي هذا التوافق إلا بعد معالجات تعسفية أعملها المفسر أزاء النص القرآني, لما كان هذا الموروث محمّل بمشاكل سندية ومضمونية عندئذ كان من الأنجع الانطلاق من محورية القرآن, فالتأسيس التفسيري ينطلق من القرآن نفسه وتكتمل فراغاته أو تفريعاته من خلال السنة, فالرواية لا يعدو أن يكون دورها ثانويا في العملية التفسيرية ((بمعنى أن الرواية تؤدي دورا توكيديا لما أسسه الفهم القرآني للقرآن)) (السيد كمال الحيدري, ٢٠٢١م: ٥١/١) فإخضاع نصوص التراث والحديث للكليات القرآنية العامة يمثل منهجية نافعة للخروج من اشكاليات الموروث الروائي وتداعياته على مبادئ الاسلام وقيمه العليا, ومنها قضايا المرأة ومكانتها, وعند تتبع

النصوص القرآنية المتعلقة بقضايا المرأة ((يمكن القول إن المساواة بين الرجل والمرأة تمثل مقصدا من مقاصد الخطاب القرآني, والنصوص الواردة بهذا الشأن لا تحتمل تأويلا يتجاوز دلالاتها المباشرة)) (نصر حامد أبو زيد,٢٠٠٧: ٢٠٠٧)ومن النصوص القرآنية التي تمثل أصلا يمكن الاحتكام إليه قوله تعالى: ((يَا أَيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلْقُنْاكُم مَن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَنْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَليم مَن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَنْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَليم مَن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَنْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَليم لَانساني للذكر والانثى, فضلا عن النصوص القرآنية الاخرى كقوله تعالى: ((يَا أَيُهَا النَّاسُ التَقوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلقَكُم مِّن تُفْسٍ وَاحِدةٍ وَخَلْقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثْيراً وَنِسَاء وَانَقُواْ اللّهَ الذِي تَمَاعُلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) (النساء : ١) وغيرها من النصوص القرآنية (نصر حامد أبو زيد,٢٠٠٧: ٢٠٩), فهذه النصوص لا تترك من النصوص القرآنية (نصر حامد أبو زيد,٢٠٠٧: ٢٠٩), فهذه النصوص لا تترك انظباعا سلبيا عند النلقي اتجاه المرأة كونها مصدرا للخطيئة والكيد والخداع, بل عدم الموروث الروائي الذي يترك هذا الانطباع السلبي الذي انعكس . كما ذكرنا سابقا . في الموروث الروائي الذي يترك هذا الانطباع السلبي الذي انعكس . كما ذكرنا سابقا . في الخطاب التفسيري .

الخاتمة

في ختام هذا البحث نعيد الفكرة الاساسية التي تبناها هذا البحث, وهي عدم موافقته على ما تبناه الخطاب التفسيري في وصف النساء مطلقا بالكيد الذي يعني الاحتيال والخبث والمخادعة استتادا إلى توصيف القرآن الكريم ((إنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)) ورأى البحث أن هذا التوصيف التفسيري جاء نتيجة لاقتطاع الآية من سياقها اللفظي المتصل, فوصف النساء بالكيد جاء ضمن سياق قصصي تأريخي لا غير, ولا مبرر لتعميمه على نساء الدنيا جميعها .

وقد قدم البحث اربع مقاربات سياقية نرى أنها كفيلة بتبديد متبنى الخطاب التفسيري.

كما ان من المهم أن نعرف أن انحياز الخطاب التفسيري لهذا الوصف الذي ليس بالضرورة أن المفسرين كانوا قاصدين للإساءة للنساء, بل مرد ذلك على الأغلب يعود لعاملين:

الاول: تأثر المفسرين بغير وعي بمرجعياتهم وفيلياتهم الاجتماعية والثقافية القائمة على الحط من مكانة المرأة والاساءة لها.

الثاني: سلطة الموروث التفسيري المملوء بالمرويات التي تنظر إلى المرأة أنها كائن شرير سيء, مع ضرورة عدم الإغفال ان هذا الموروث في جانبه الثاني تعاطى مع المرأة على أساس إنسانيتها واحترام حقوقها في مفارقة لكل الثقافات والأعراف السائدة, الا ان الخطاب التفسيري احيانا ينحاز إلى الموروث الذي يتعاطى مع المرأة في جانبه السلبى.

ورأى البحث أنّ مغادرة هذا الخطاب ذي التوجه السلبي يكون عبر الاحتكام إلى النص القرآني نفسه بوصفه المرجعية الوحيدة للوصول إلى المقاصد القرآنية بعيدا عن التأثر بمرجعيات أخرى تبعدنا عن المقاصد الالهية الحقة .

المصادر

- القرآن الكريم
- محمد الامين الشنقيطي ،أضواء البيان على ايضاح القرآن بالقرآن, دار الفكر, بيروت طينان, ١٩٩٥

- أبو حيان الاندلسي ،البحر المحيط, تحقيق صدقي محمد جميل, دار الفكر, بيروت, ١٤٢٠
- محمد طاهر ابن عاشور, التحرير والتنوير, مؤسسة التاريخ, بيروت, لبنان ط۱ (د.ت)
- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي, الجامع لأحكام القرآن, تحقيق : أحمد البردوني, دار الكتب المصرية, القاهرة, ط٢, ١٩٦٤
- محمد بن جرير الطبري, جامع البيان في تأويل القرآن, تحقيق أحمد محمد شاكر, مؤسسة الرسالة, ط ۱, ۲۰۰۰م
- د. علي الشبعان, الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل, دار الكتاب الجديد, ط١, ٢٠١٠م
- نصر حامد أبو زيد, دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة, المركز الثقافي العربي, ط٤, ٢٠٠٧
 - عبد الجواد ياسين, الدين والتدين, دار, بيروت, لبنان ط٢, ٢٠٢١
- د. فرح الفاضلي, الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم, الرافدين للطباعة والنشر, بيروت, لبنان,ط١, ٢٠١٨
- شهاب الدين, محمود بن عبد الله الآلوسي ،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, تحقيق علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية, بيروت- لبنان, ط1, ١٤١٥ ه
 - أسماء المرابط, القرآن والنساء, قراءة للتحرير, ترجمة محمد الفرات, ٢٠١٠ م
- محمد فاكر الميبدي, قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة, المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية, ايران, ط1, ٢٠٠٧

- محمد جواد مغنیة, الکاشف, دار الانوار, بیروت لبنان, ط الرابعة, ۲۰۰۹
- أبو القاسم محمد بن عمرو الزمخشري ،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل, دار الكتاب العربي, بيروت, ط٣, ١٤٠٧ ه
- أبو الفضل بن الحسن الطبرسي, مجمع البيان في تفسير القرآن, دار ومكتبة الهلال, بيروت ط1, ٢٠٠٥
 - فريدة زمرد, المرأة في القرآن الكريم بين الطبيعة والوظيفة,
- راشد الغنوشي, المرأة بين القرآن و واقع المسلمين, المركز المغاربي للبحوث والترجمة, ط٣, ٢٠٠٠م
- أحمد فارس بن زكريا, معجم مقاييس اللغة, تحقيق عبد السلام هارون, دار
 الفكر, ۱۹۷۹
- فخر الدین الرازي, مفاتیح الغیب, دار إحیاء التراث العربي, بیروت لبنان, ط۱, ۱۲۹۱هـ, ۲۰۰۸م
- الراغب الاصفهاني, مفردات ألفاظ القرآن, تحقيق صفوان عدنان داوودي, انتشارات ذوي القربي, ط٤, ١٤٢٥ه
 - محمد رشيد رضا, المنار, الهيئة العربية العامة للكتاب, ١٩٩٠
- السيد كمال الحيدري, منطق فهم القرآن, دار المرتضى, بيروت, لبنان ط١,
- محمد حسين الطباطبائي, الميزان في تفسير القرآن, مؤسسة الأعلمي, بيروت - لبنان, ١٤١٧ - ١٩٩٧